قصص عربيّة

بَين المأمون وعمّه

قصص عربية

بَين المأمون وعمّه

محمد أبو الفضل إبراهيم
عبد المجيد قطامش

يطلب من :
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

ر مصر للطباعة
٣٠ شارع كامل صدقي "الفجالة"

بين المأمون وعمه

١

كانَ هَارونُ الرَّشيدُ مِنْ أَعظَمِ الخُلَفَاءِ شَأْنًا ، وَأَعْلَاهُم مقامًا ، شَعَرَ النَّاسُ فِى عَصْرِهِ بالحياةِ السَّعِيدَةِ ، وَنَعِمُوا بالخَيْرِ العَمِيمِ ، وَأَحَسُّوا بالطُّمَأْنِينَةِ والأَمْنِ ؛ حتَّى كَانَ عصرُه يُسَمَّى بالعَصْرِ الذَّهَبِىِّ فِى تَارِيخِ الإِسْلَامِ .

وَلَمَّا ماتَ اضْطَرَبَتْ أَحْوَالُ البِلَادِ ، وَدَبَّ النِّزَاعُ بينَ وَلَدَيْه المأْمونِ والأَمِينِ ، كلٌّ منهما يُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ فى الخِلَافَةِ مَحَلَّ أَبِيهِ ، وَيَرِثَ سُلْطَانَهُ الوَاسِعَ ، وَمُلكه العَرِيضَ .

ثُمَّ انتَهى الأَمرُ بانْتصارِ المأْمونِ على الأَمِينِ ، واستِيلائِهِ على المُلْكِ ، ودخلَ النَّاسُ جميعًا فى طَاعَتِهِ ، وَعَادَ إِلَى البِلَادِ أَمْنُهَا واسْتِقْرَارُهَا . وأَصْبَحَ المأْمُونُ خَليفَةَ اللهِ فى الأَرْضِ ، يَحْكُمُ الرَّعِيَّةَ بالعَدْلِ ، وَيَرْعَى شُؤُونَها بالحِكْمَةِ والرَّشَادِ .

٢

وعَلِمَ المَأْمُونُ ذاتَ يومٍ أَنَّ عَمَّهُ إبراهيمَ بنَ المَهدِىِّ قد ادَّعَى الخِلَافَةَ لنفْسِهِ فِى الرَّىِّ ، وَحَكَمَ النَّاسَ هُنَاكَ ، وانفصَلَ بذلِكَ عن خِلَافَةِ المأمونِ فِى بَغْدادَ ؛ فعَزَمَ على الذِّهَابِ إليه ، لِيُؤَدِّبَهُ ، وَيَقْضِىَ على خِلَافَتِهِ ، ولمَّا وصَلَ إلى الرَّىِّ أَعْلَنَ فى أَهلِهَا أَنَّ من يَدُلُّ على عَمِّهِ إبراهيمَ بنِ المَهدِىِّ ، أَو يَأْتِيهِ بِهِ ؛ فَلَهُ مائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

وشاعَ هَذا الخَبرُ فى المدينةِ ؛ فخافَ إبراهيمُ على نَفْسِهِ ، واختَفَى عن أَعيُنِ النَّاسِ ، أَمَّا المأْمونُ فقَد انتظَرَ بالمدينةِ طويلًا ، وطَالَ انتِظارُه دُونَ فَائِدَةٍ .

وَخَرَجَ إبراهِيمُ من دَارِهِ ذَاتَ يَومٍ مُتَنَكِّرًا مُسْتَخْفِيًا وكانَ الوقتُ ظُهرًا ، واليومُ صَائِفًا شديدَ الحرارةِ ، فَدَخَلَ زُقَاقًا ضَيِّقًا ، وَسَارَ فِيهِ حَتَّى نِهَايَتِهِ ، ولمَّا وَجَدَهُ مَسْدُودًا ، خَافَ أَنْ يَرَاهُ أَحدٌ إنْ رَجعَ من الزُّقَاقِ ، فَوَقَفَ حَائِرًا مَذعُورًا لَا يَدرِى أَيْنَ يَتَوَجَّهُ ، وَلَا مَاذَا يَفْعَلُ .

وَدَارَ بنظَرِهِ حولَهُ ، وتلَفَّتَ ؛ فرأَى عَبْدًا أَسْوَدَ يَقِفُ عَلَى بَابِ دَارِهِ ، فَتَقَدَّمَ نَحْوَه ، وسَلَّمَ عَلَيهِ ، ثُمَّ سَأَلَهُ :

ـــ هَلْ أَجِدُ عندَكَ مَوضِعًا أُقِيمُ فِيهَ سَاعَةً من نَهَارٍ ، فَإِنَّ الحَرَّ اليومَ شَديدٌ ،وَقَدْ أَتْعَبَنِى طولُ المَسِيرِ !!

فَأَجَابَهُ العَبْدُ :

ـــ تَفَضَّلْ ، فَالدَّارُ دَارُكَ ، وَأَهْلًا وَسَهْلًا ومرحبًا .

وَمَدَّ يَدَهُ ، فَفَتَحَ بَابَ الدَّارِ ، وَدَخَلَ إبراهِيمُ ، فَوَجَدَهَا دَارًا نَظِيفَةً ، قَدْ فُرِشَتْ بِالْحُصرِ الْمُلَوَّنَةِ ،وَنُثِرَتْ فَوقَهَا المِخَدَّاتُ ، فَانْتَحَى ناحِيَةً وَجَلَسَ ، والعَبْدُ يُرَحِّبُ بِهِ بِعِبَارَاتِ الإِكْرَامِ والحَفَاوَةِ .

* * *

وَبَعْدَ قَلِيلٍ اسْتَأْذَنَهُ العَبْدُ فى الخُروجِ لِقَضَاءِ بعضِ الحَاجَاتِ ، فَلَمَّا أَغْلَقَ البابَ خَلْفَهُ ؛ خَافَ إبْرَاهِيمُ خوفًا شديدًا ، وظَنَّ أَنَّ العَبْدَ قَد سَمِعَ عنِ المُكَافَأَةِ التى أَعَدَّهَا أَميرُ المُؤمنينَ لمن يَدُلُّ عليه ، وأَنَّهُ قَد عرَفَهُ ، فَذَهَبَ إِلَى الخَلِيفَةِ لِيَدُلَّهُ عَلى مَكانِهِ ، وَمَكَثَ إبراهيمُ فى الدَّارِ وحِيدًا ، قلِقًا

مَذْعُورًا ، يُفَكِّرُ فى الهَرَبِ تارَةً ، وفِى البَقَاءِ تارةً أُخرَى .

وبينَما هو يفكِّرُ فى مَصِيرِهِ ، أَقبلَ العَبدُ ، وَمَعهُ حَمَّالٌ يحمِلُ كلَّ ما يَحْتَاجُ إليهِ الضَّيفُ ، من لحمٍ وخُبْزٍ وَفَاكِهةٍ ؛ ولـمْ يَنْسَ أَنْ يُحْضِرَ مَعَـهُ كَذلِكَ قِدْرًا جَدِيـدةً ، وجـرَّةً جديدةً ، وأَكوابًا جديدةً .

ووضَعَ هذهِ الأَشياءَ أَمامَ إبراهيمَ ، وجلَسَ وهو يقولُ له :

ــ جَعَلَنِى اللهُ فِدَاكَ ! أَنَا رَجُلٌ حَجَّامٌ ، وَأَعْرِفُ أَنَّكَ قَدْ تَنْفِرُ منِّى لِمِهْنَتِى الكَرِيهَةِ ، ولذلِكَ أَحْضَرتُ لَكَ هذهِ الأَوعِيةَ الجَديدةَ التى لَمْ تَمَسَّهَا يدِى .

فَشَكَرَهُ إبراهِيمُ ، وقَدَّرَ مُرُوءَتَه وفَضْلَهُ ، وقامَ فَطَبَخَ وأَكَلَ حتَّى شَبِعَ .

فَلَمَّا فرغَ من الطَّعَامِ ؛ قَامَ العَبْدُ إلَى خِزَانَةٍ لَهُ ، فَأَخْرَجَ مِنها عُودًا ، ثمَّ قالَ لإبراهيم :

ــ لَيسَ مِن قَدْرِى أَنْ أَسأَلَكَ أَنْ تُغَنِّـى ، ولكِـنَّكَ ، صاحِبُ مُروءَةٍ وفَضْلٍ ، فَإنْ رأَيتَ أَنْ تُشَرِّفَ عَبدَكَ بأَن تُغَنِّى لنَفْسِكَ وأَنَا أَستَمِعُ فافْعَلْ ، وأَنَا لَكَ من الشَّاكرينَ .

فَابتسَمَ لهُ إبراهيمُ ، وقالَ :

ــ ومَن أَدراكَ أَنَّنِى أُحسِنُ الغِنَاءَ ؟

فَأَجَابَهُ العَبْدُ متَعَجِّبًا :

ــ سُبحانَ اللهِ ! أَنْتَ مَشهُورٌ بالغِنَاءِ يا سَيِّدِى ، أَلَسْتَ إبراهيمَ بنَ المهدِىِّ ، خَلِيفَتَنا بالأَمْسِ ، الذى جعَلَ المأْمونُ لِمَن يدُلُّ عَلَيهِ مائةَ أَلفِ دِرْهَمٍ ؟!

فدهِشَ إبراهِيمُ لمَّا سَمِعَ هَذَا الكَلَامَ منـه ، وعَظُـمتْ مُرُوءتُه عندَه ، ثم تَنَاوَلَ منهُ العُودَ ، وَأَصْلَحَه ، وتَغَنَّى بِأَشعارٍ مُطْرِبةٍ ، فَطَرِبَ العَبدُ لمَّا سَمِعَ الغِنَاءَ ، واهتزَّ سرورًا وطربًا ، وقالَ لَهُ :

ــ هَلْ يسْمَحُ لِى سَيِّدِى أَنْ أُغَنِّى أَنَا أَيضًا ، وَإن كُنتُ لسْتُ من أَهلِ الغِنَاءِ ؟

فَقَالَ لَهُ إبْرَاهِيمُ :

ــ يَكُونُ ذَلِكَ زِيَادَةً فى أَدَبِك ومروءَتِكَ .

فَأَخَذَ العبدُ العُودَ ، وَضَرَبَ عَلَيـهِ ، وغَنَّـى ؛ فارتَـاحَتْ نَفْسُ إبْراهِيمَ لغِنَائِهِ ، وَأَنِسَ بِهِ ، وذَهَبَ عَنهُ الخوفُ والفَزَع .

ثُمَّ اسْتأْذَنه إبراهيمُ فِى أَنْ ينامَ قَليلًا ، ولمَّا اسْتَيقَظَ من نومِه ، لَبِسَ ثيابَه التى يَتَنكَّرُ فيها ، وَهَمَّ بالخُروجِ ، وقبْلَ أَنْ يَخْرُجَ قَدَّمَ للعَبْدِ كِيسًا به دَنانيرُ ، وقالَ له :

ــ أَشْكُرُكَ على حُسنِ ضِيافَتِك لى ، وأَستَوْدِعُكَ اللهَ ، وَأَرجُو أَنْ تَقْبَلَ منِّى هذَا الكِيسَ ، لِتُنْفِقَ مِمَّا فيه على نفسِك .

فَتَغَيَّرَ وجهُ العَبْدِ ، وظَهَرَتْ على ملامِحِه عَلامَاتُ الغَضَبِ ، وَرَفَضَ أَنْ يَقْبَلَ الكِيسَ ، وقالَ له :

ــ يا سَيِّدى ، إنَّ الفُقَراءَ أَمْثالَنَا لا قِيمَةَ لَهُم عِنْدَ أَهْلِ الرِّياساتِ أَمثالِكُم ؛ فَهم يَظُنُّونَ بهم الظُّنونَ السَّيِّئَةَ ، وهلْ يَجُوزُ أَنْ آخُذَ على ضِيَافَتِكَ ثَمَنًا !؟ لَا واللهِ لَنْ يَكُونَ هَذَا ، إنَّ حُلُولَكَ بمنزِلى شَرَفٌ عَظِيمٌ لِى .

فَأَلَحَّ عَليهِ إبراهيم إلحاحًا شديدًا لِيأْخُذَ الكيسَ ، ولمَّا طَالَ إلحاحُه ؛ تَنَاوَلَ العبدُ موسَى ، وقالَ لَهُ :

ــ واللهِ إنْ رَاجَعْتَنى فِى أَخْذِ الكِيسِ ؛ لَأَذْبَحَنَّ نفسِى بهذِهِ الموسَى .

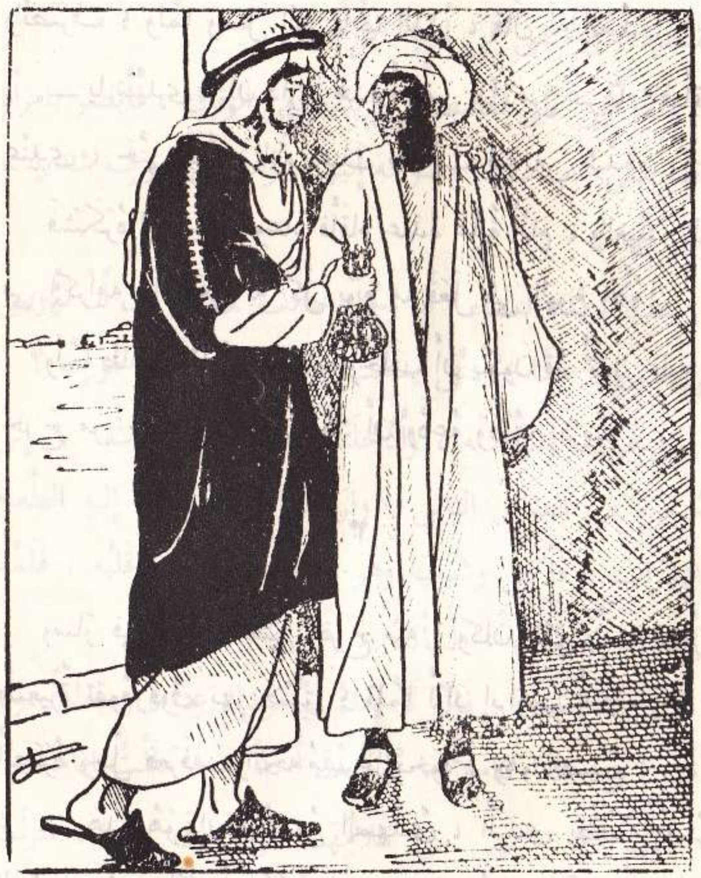

قدم إبراهيم للعبد كيساً به دنانير ، فرفض العبد أن يقبله .

فَخَشِىَ إبراهِيمُ عليهِ ، وأَعَادَ الكِيسَ إِلَى جيْبِه ، وودَّعَهُ وانْصَرَفَ ؛ وَلَمَّا وصلَ إلى بابِ الدارِ ، قالَ له العبدُ :

ـــ يا سَيِّدى ، إنَّ دَارِى هذه أَخْفَى لكَ من غَيرِهَا : فَأَقِم عِنْدِى ، حَتَّى يُفرِّجَ اللهُ عنكَ ما أَنْتَ فِيهِ من شِدَّة .

فَشَكَرَهُ إبْراهيمُ ، وعادَ فأَقَامَ عندَهُ عدَّةَ أَيَّامٍ ، والعبدُ يبالغُ فى إكرامِه ، ويفْعَلُ به كُلَّ يوْمٍ ما فَعَلَ فى اليومِ الأَوَّلِ .

ولَمَّا طَالَتْ إِقَامَتُه عِنْدَه ، وخافَ أَن يكونَ قدْ أَثْقَلَ عليه ؛ خرجَ من عِنْدِه مُتَنَكِّرًا ، بَعْدَ أَن ودَّعهُ وَدَاعًا كَريمًا .

٣

وسارَ فى الزُّقاقِ حتَّى خرجَ منه ، وكانَ على رأْسهِ قنطرةٌ صغيرةٌ تقومُ فَوقَ نهرٍ ضَيِّقٍ ؛ فلمَّا أَرادَ إبراهيمُ أَن يَعبُرَهَا ، أَبْصَرَهُ رجلٌ فعرَفَه ، واتَّجه مُسْرعًا نَحوَهَ ، وهو يَصِيحُ :

ـــ هَذَا هُوَ إبراهيمُ بنُ المَهدىِّ ، الَّذى يطْلُبُهُ أَميرُ المؤمنين ! وحاوَلَ أَنْ يُمْسِكَ بِه ، فَدَفَعَهُ إبراهِيمُ فى صَدْرِهِ بيِدِه فوقَعَ عَلَى الأَرضِ ؛ وصاحَ الرجلُ ، فَتَجَمَّعَ النَّاسُ

حَولَهُ ، فانتَهَزَ إبراهيمُ هذِهِ الفُرصَةَ ، وهَرَبَ من النَّاسِ ، وعَبَرَ القَنْطَرَةَ ، واخْتَفَى فى أَحَدِ الأَزِقَّة .

ولَمَّا أَمِنَ عَلَى نَفْسِهِ خرجَ يَسِيرُ فِى الزُّقَاقِ ، فَأَبْصَرَ بامرأَةٍ واقفَةٍ على بابِ دَارِهَا ، فتوجَّهَ إليها ، وهُوَ فِى خوفٍ شديدٍ ، وقالَ لَهَا :

ـــ يَا سَيِّدَةَ النساء : أَنَا رَجُلٌ خائِفٌ ، فهَلْ لَكِ أَنْ تُؤْوِينِى فى منزِلِكِ هَذَا ؛ حتَّى يذهَبَ عَنِّى ما بِى من خَوفٍ ؟

فَرَحَّبَتِ المَرأَةُ به ، وأَدْخَلَتْهُ دارَهَا ، وَصَعِدَتْ به إِلى حُجرةٍ فى الطَّابِقِ الثانى ، وفَرَشَتْها ، وقَدَّمتْ إِليهِ الطَّعامَ والشَّرابَ ، فأَكَلَ وشرِبَ وهُوَ خَائِفٌ يَرْتَجِفُ قَلبُه ، فَلَمَّا رَأَتِ المَرأَةُ ذلِكَ ، طَمْأَنَتْهُ ، وقَالَتْ لَهُ :

ـــ لا تَخَفْ ؛ فإِنَّهُ لَا يَعْلَمُ بِوُجُودِكَ عِنْدِى مخلوقٌ ، ولَو أَقَمْتَ هُنا عامًا كاملًا ما عَلِمَ بكَ أَحَدٌ ، وما مَلَلْتُ إِقَامَتَك .

ولَمْ تَكَد تَنتَهِى من كَلَامِهَا حتَّى طُرَقَ بابُهَا ، فَنَزَلَتْ وفَتَحتْ للطَّارِقِ ، وكانَ ذلكَ الطَّارِقُ هوَ الرَّجُلَ الذى دَفَعَهُ إبراهِيمُ فى صَدرِهِ ، وَأَوقَعَهُ على الأَرضِ قُرْبَ القَنطَرَةِ ، جاءَ

وَهُوَ مَشدُوخُ الرَّأْسِ ، ودَمُهُ يَسِيلُ . فلمَّا رأَتهُ المرأَةُ على هَذهِ الحالِ ، تَأَلَّمَتْ لِمَنْظَرِهِ وأَدْخَلَتْهُ دَارَهَا ، وسأَلَتْهُ :

— ما الذى أَحدثَ بك هذه الجُروحَ التى أَرى ؟!

فأَجَابَهَا :

— لَقَدْ ظَفِرْتُ منذُ قليلٍ بالرَّجُلِ ، ولكنَّه أَفْلَتَ من يَدِى .

قالت لَه وهىَ لا تَفْهَمُ ماذَا يُرِيد :

— ومَن ذَلِكَ الرَّجُلُ الذى ظَفِرْتَ به ؟

فأَجابَهَا :

— إبراهِيمُ بنُ المَهْدِىِّ الذى يبحثُ عنهُ أَميرُ المؤمنينَ ، لَقِيتُهُ منذُ ساعَةٍ ، فَتعلَّقْتُ به ، فدَفَعَنى بيدِه ، فوَقَعْتُ عَلَى الأَرْضِ ، وَأَصَابَنِى ما تَرَينَ الآنَ .

ثُمَّ سَكَتَ قَليلًا ، وتابَعَ حَديثَه قَائِلًا :

— آه ! لَوْ قَبَضْتُ عَلَيهِ ، وحمَلتُه إلى أَميرِ المؤمنينَ لأَخذْتُ المُكَافَأَةَ ، مائةَ أَلفِ دِرْهَمٍ .

وأَخْرَجَتِ المَرأَةُ لهُ مَسحوقًا وَضَعَهُ عَلى جُروحِهِ ، وخِرَقًا لَفَّهَا بِهَا ، ثُمَّ فَرشَتْ لَهُ فَنامَ .

وصَعِدَتْ إلى إبراهيمَ ، وقالَتْ لَهُ :

— هَلْ سَمِعْتَ مَا قَالَ الرجلُ ؟

فَأَجَابَهَا :

— نَعَمْ .

فَقَالَت :

— أَظُنُّكَ إبراهيمَ بنَ المهدِىِّ ، صاحِبَ القِصَّةِ !

فقالَ لَهَا :

— نَعَمْ ، أَنَا إبراهِيمُ :

فابتَسَمَتْ لَهُ وقَالت :

— لا بأْسَ عَلَيكَ ولا خَوفَ ، وأَرْجُو أَلَّا يَشْعُرَ الرجلُ بوُجُودِكَ عِنْدِى :

وأَقَامَ إبراهِيمُ عِنْدَها ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ، فِى ضِيَافَةٍ كَرِيمةٍ ، وأَمْنٍ كاملٍ .

٤

ولمَّا جاءَ الليلُ ؛ خَرَجَ من عِنْدِهَا مُتَنَكِّرًا ؛ وَذَهَبَ إلى بَيْتِ خَادِمَةٍ له ، فَلَمَّا رَأَتْهُ بَكَتْ وتوجَّعَتْ ، وَحَمِدَتِ اللهَ على سَلَامَتِهِ .

وبَعدَ قَلِيلٍ خَرَجَتْ من الدَّارِ بعْدَ أَنْ أَفْهَمَتْهُ أَنَّها ذَاهِبَةٌ إلى السُّوقِ ، لِتَشْتَرِى لَهُ طعامًا وَفاكِهَةً .

ومرَّتْ ساعةٌ من نهارٍ أتى بعدَها رئيس الشُّرْطَةِ بالْخيلِ والرِّجالِ ، ومعهم الخادمةُ ، فقبَضوا عليه ، وحمَلوه إلى أميرِ المؤمنين .

* * *

وجلَسَ المأمونُ مجلساً عامًّا بيْنَ حاشيتِه ورجالِه ، وأمرَ بإدخالِ عمِّه عليه ، فلمَّا مثل بين يدَيْه ، سلَّمَ عليه بسلامِ الخلافةِ ، فردَّ عليه المأمونُ :

ـــ لا سلَّمكَ اللهُ ، ولا حفِظك ، ولا رَعاك !

فقالَ إبراهيمُ :

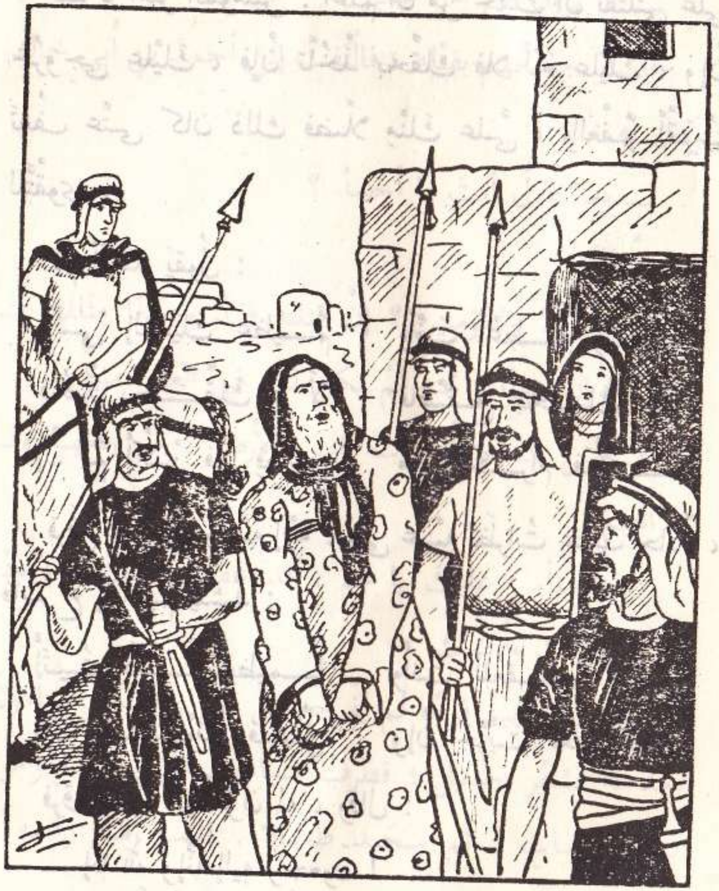

أتى رئيس الشرطة بالخيل والرجال ، ومعهم الخادمة ، فقبضوا على إبراهيم

ـــ يا أميرَ المؤمنين . أَعلمُ أَنَّ مِنْ حقِّك أَنْ تقتُلَني على خرُوجِي عليْكَ ، فإنْ تأخُذْ بحقِّك فلا لَوْمَ عليْكَ ، وإنْ تَعْفُ عنِّى كان ذلك فضلًا مِنْكَ علىَّ ، والعفْوُ أقْرَبُ للتَّقْوى .

ثم أنْشَد يَقولُ :

ذنْبى إلَـيْكَ عظيـمٌ   وأنْتَ أعْظـمُ مِنْـهُ
فخُذْ بحـقِّكَ أوْ لَا   فاصْفَـحْ بحلـمِكَ عَنْهُ
إنْ لَمْ أكُنْ فى فِعالى   منَ الكـرام فكُنْـهُ

فرفَعَ المأمونُ رأسَه إليْه ، وفى عيْنيْه نَظَراتُ عِتابٍ حادَّةٌ ، فأسرَع إبراهيمُ يُنْشِدُ :

أَتَيْتُ ذَنْبـاً عَظيمـاً   وأَنتَ للعفـوِ أهْـلُ
فإنْ عفـوْتَ ففضْلٌ   وإنْ جَزَيْتَ فعـدْلُ

فرَقَّ قلبُ المأمونِ له ، وقالَ :

ـــ إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجِعونَ !

ثم أَقْبَلَ على أخِيه مُحمَّدٍ المُعْتَصِمِ ، وَابْنِه العبَّاسِ وجميعِ مَنْ حضَرَه من أَصْحابِه وقالَ لهم :

ـــ ما تَروْنَ فى أمْرِ عَمِّى !

فأشارَ جميعُهم بقتْلِه ؛ فالْتَفَتَ إلى أحمدَ بنِ أَبِى خالدٍ ، وقالَ له :

ـــ وما تقولُ أنتَ يا أحْمدُ ؟

فأجابَه :

ـــ يا أميرَ المؤمنين ؟ إنْ قتلْتَه فقدْ وجدْنَا مِثْلك قَتَلَ مِثْلَه ، وإنْ عفوْتَ عنه لَمْ يكُنْ لكَ فى العَفوِ مَثيلٌ .

فنكَّسَ المأمونُ رأسَه إلى الأرضِ ، ثم رفَعَها وقالَ لإبراهيمَ :

ـــ لا بأسَ عليكَ يا عَمٌّ ، قد عفوْتُ عنكَ ، ورَدَدْتُ إليكَ أموالَك وأَرْضَك .

ففرِحَ إبراهيمُ فرحًا لم يَفْرحْه مِنْ قبلُ ، وشكرَ المأمونَ ، ومدَحه بشِعْرٍ جميلٍ ؛ فطرِبَ المأمونُ من شِعْرِه ، وأمرَ له بمالٍ وثِيابٍ . ثم سَجَد طويلًا . فلمَّا رفعَ رأسَه قالَ لإبراهيمَ :

ـــ يا عَمٌّ ؛ أتدْرِى لمَ سجدْتُ ؟

قالَ له :

ـــ سجدْتَ شكراً للهِ ، على أَنَّهُ أوقعنى فى يدِك ، تَفْعل بِى ما تشاءُ .

فقالَ له المأمونُ :

ـــ أخطأتَ ، إنَّما سجدتُ شكراً للهِ الذى أَقْدرَنى على أَنْ أعفُوَ عنكَ . وقد أشارَ الناسُ علىَّ بقتلِكَ . فحَدِّثْنى الآنَ بما كانَ مِنْ أمرِك .

فأخذَ إبراهيمُ يقُصُّ على المأمونِ قصَّتَه ، وما جرَى له معَ العبْدِ والمرأةِ والخادمةِ التى كانت السَّببَ فى القبضِ عليه ؛ فأمرَ المأمونُ بإحضار هذه الخادمةِ ، وكانتْ فى دارِها تنتظِرُ الجائزةَ ، فلمَّا حضرتْ قالَ لها :

ـــ ما الذِى حَملكِ على تسليمِ إبراهيمَ ، مَعَ أَنَّهُ سيِّدُكِ ، وطالما أحسَنَ إليك ؟!

فأجَابتْه :

ـــ حملنِى على ذلكَ المكافأةُ التى أعدَدْتَها لمن يقبِضُ عليْه .

قالَ لها :

ـــ هلْ لكِ مِنْ زَوْجٍ أَوْ ولَدٍ ؟

قالتْ :

ـــ لا زَوْجَ لى ولَا ولَد .

فأمرَ بضربِها مائةَ سَوْطٍ ، وبإلقَائِها فى السِّجن تبقَى فيه مدى الحياةِ .

ثم أَمَر بإحضارِ العبدِ والمرأةِ . فلمَّا حضَرا احتَفَى بهما ، ورحَّبَ بمَقْدَمِهما ، وشكرَهُما على معروفِهما ، وجعَل المرأةَ وصيفَةً فى قصرِه ، وأَعْطَى للعبدِ داراً مفروشةً ، وخلعَ عليه ثياباً ثمينةً ، وجعلَ له راتباً ثابتاً مدَى الحياةِ .

نكبة وزير

كانَ قصرُ الخليفةِ « المهدىِّ » ببَغدادَ آيةً فى الرَّوعةِ والجمالِ ، وكان يُحيطُ بجوانبِه الأربعةِ بُستانٌ فَسيحٌ يزخَرُ بمُخْتلِف الأشجارِ والأَزهارِ ، وتتَخلَّلُه الجداولُ والبِركُ والغُدران .

وكان للخليفةِ فى ناحيةٍ منْ هذا البُستانِ مجلِسٌ مرتفِعٌ عنِ الأرضِ ، يَقومُ عَلَى أعمدةٍ مُزَخْرفةٍ من الخشبِ ، وتحُفُّ به رُءوسُ الأشجارِ وفروعُها مِنْ كلِّ جانبٍ ، وتُطِلُّ عليه من هذه الأشجارِ أزهارٌ بديعةُ الألوانِ ، مختلِفةُ الأشكالِ .

وقد فُرِش المجلسُ ببِساطٍ ثمينٍ منقوشٍ بنقُوشٍ تُشبِهُ الأزهارَ فى ألوانِها وأشكالِها ، ووُضعتْ فوقَ هذا البساطِ أنواعٌ من الوسائدِ والحشايا ، قد صُنِعتْ من الحريرِ المطرَّز .

وكان يَحْلو للخليفةِ مِنْ حينٍ لآخرَ أن يجلسَ فى هذا المجلسِ ؛ إذا احتاجتْ نفسُه إلى قِسطٍ منَ الراحةِ والهدوءِ ، بعيداً عنِ القصرِ ومَنْ فى القصرِ .

وكان للخليفةِ وزيرٌ عظيمٌ يُدْعَى « يَعقوبَ بنَ داودَ » وكان يعقوبُ رجلًا خطيراً ، له مكانةٌ ساميةٌ فى الدَّولةِ ، وله نفوذُه الواسعُ فى شئونِها ؛ إذْ كانَ عاقلًا ، سديدَ الرأىِ ، بعيدَ النظرِ ، صائبَ الحُكْمِ .

وجلسَ الخليفةُ ذاتَ يَوْمٍ فى مجلسِه الخَشَبِىِّ ، واستدْعَى وزيرَه يعقوبَ فجلسَ معه ، ودارتْ بينهما الأحاديثُ فى شئونِ الدَّولةِ . ثم سكتَ الخليفةُ قليلًا ، ورفَع بصرَه إلى وزيرِه ، وقالَ له :

— ما رأْيُكَ فى هذا المجلس يا يعقوبُ ؟ أَلسْتَ تراهُ مجلِساً حَسناً جميلًا ؟

فأجابَه :

— إنَّه غايةٌ فِى الحُسْنِ والجمالِ يا أميرَ المُؤْمِنين . متَّعكَ اللهُ بِهِ ، وأمَدَّ فى حياتِك !

فابْتَسمَ الخليفة ، وقال :

— قدْ وهبتُه لكَ بجميعِ ما فيه ، ووهبتُ لكَ كذلكَ مائةَ أَلفِ درْهمٍ ؛ فدَهِشَ يعقوبُ لكلامِ الخليفةِ ، وشكرَهُ ،

وأثْنى عَلَيْهِ .

وكانَ يقفُ على بابِ المجلسِ جاريةٌ حسناءُ ، تقومُ على خدمةِ الخليفةِ ، فنظَر إليْها وقالَ ليعقوبَ :

— وهبتُ لكَ أيضاً هذه الجاريةَ ، ليَتِمَّ فَرَحُكَ وسرورُكَ .

فازدادتْ دَهشةُ الوزيرِ ، وبالغَ فى شكرِ الخليفةِ ، ولكنَّ المهدِىَّ قاطعَه قائلًا له :

— غيرَ أنَّ لى عندكَ حاجةً أرجُو أَنْ تقضيهَا .

فقال له يعقوبُ :

— وما حاجتُكَ هذه يا أميرَ المؤمنينَ ؟ أنا عبدُكَ المُطيع .

فقالَ له :

— عندِى رجلٌ من العَلَويِّين ، أخافُ منْه على مُلكِى ، وَأخشَى أَنْ يَخرجَ عَنْ طاعتِى ، وأنتَ تعلمُ أنَّ هؤلاءِ العَلَوِيِّين مِن أشدِّ أعدائنا ، وَمِنْ أخطرِ النَّاسِ عَلَى مُلْكِنا : فخُذْ هذَا العلوِىَّ إلى بيتِكَ ، واعمَلْ على التَّخلُصِ منه ، حتَّى نَتَّقِىَ شَرَّه .

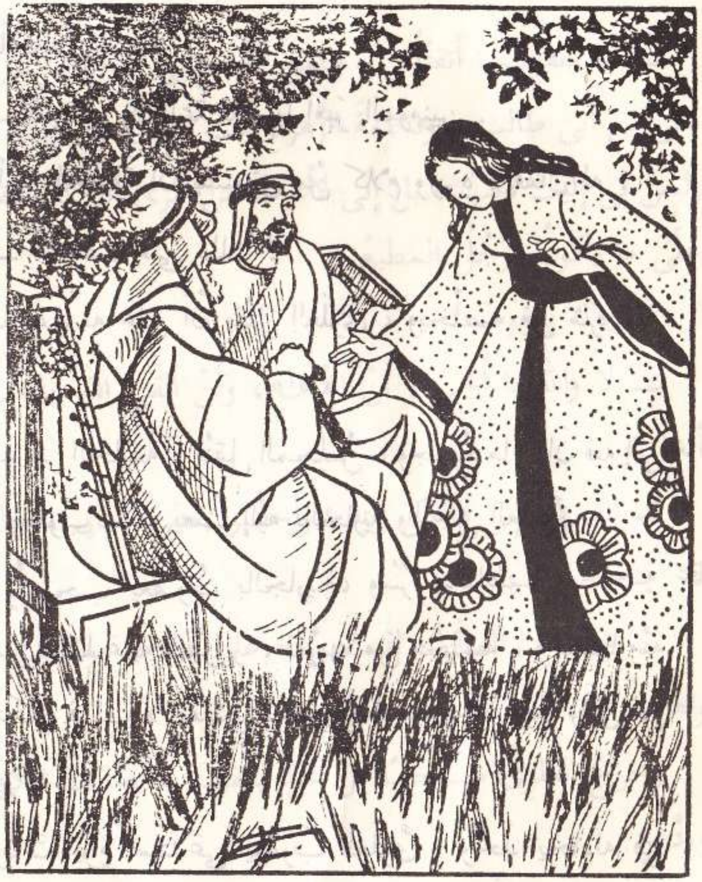

كان يقف على باب المجلس جارية حسناء ، فنظر إليها الخليفة ، وقال ليعقوب :

— وقد وهبت لك هذه الجارية أيضا ، لتم فرحك وسرورك .

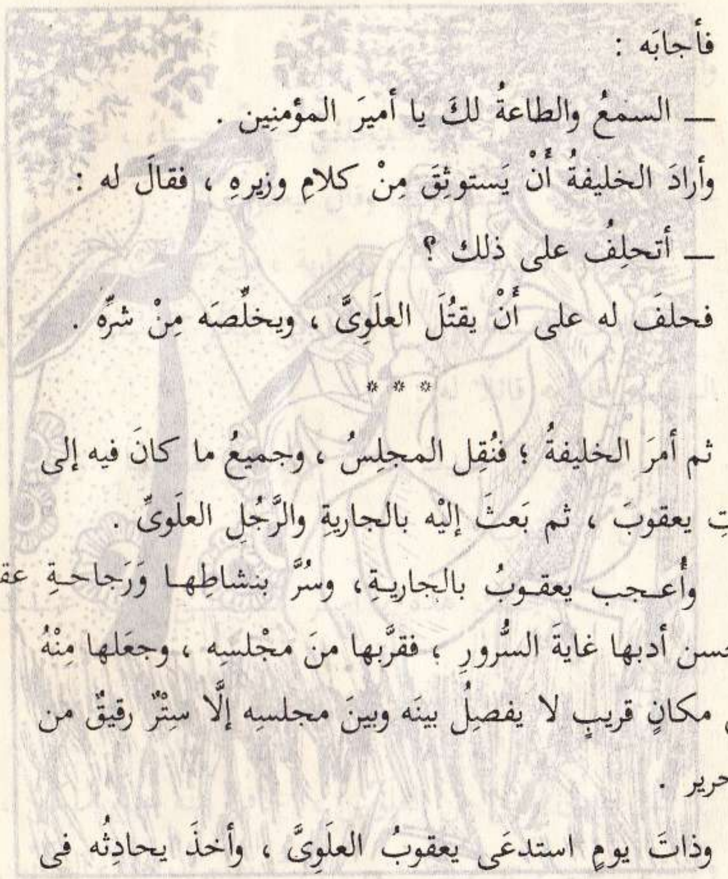

فأجابه :

ـــ السمعُ والطاعةُ لكَ يا أميرَ المؤمنين .

وأرادَ الخليفةُ أنْ يَستوثِقَ مِنْ كلامِ وزيرِهِ ، فقالَ له :

ـــ أتحلِفُ على ذلك ؟

فحلفَ له على أنْ يقتُلَ العلَوِىَّ ، ويخلِّصَه مِنْ شرِّهِ .

* * *

ثم أمرَ الخليفةُ ؛ فنُقِلَ المجلِسُ ، وجميعُ ما كانَ فيه إلى بيتِ يعقوبَ ، ثم بَعثَ إليْه بالجاريةِ والرَّجُلِ العلَوِىِّ .

وأُعجب يعقوبُ بالجاريةِ، وسُرَّ بنشاطِها ورَجاحةِ عقلها وحسن أدبها غايةَ السُّرورِ ، فقرَّبها منَ مجْلسِه ، وجعَلها مِنْهُ فى مكانٍ قريبٍ لا يفصِلُ بينه وبينَ مجلسِه إلَّا سِتْرٌ رقيقٌ من الحرير .

وذاتَ يومٍ استدعَى يعقوبُ العلَوِىَّ ، وأخذَ يحادِثُه فى أسبابِ غضبِ الخليفة عليْه ؛ فوجَدهُ مِنْ أعقلِ الناسِ وأذكاهُم ؛ فعظم فى نفسه وعز عليه أن يَأْمُرَ الخليفةُ بقتله .

وقال العلوىُّ له فى نهايةِ حديثِهما .

ـــ يا يعقوبُ ؛ أتقتُلُنى ، وتلقَى اللهَ بدمِى ، وأنا مِنْ ذرِّيةِ علىٍّ بنِ أبى طالبٍ ، وفاطمةَ الزَّهراءِ بنتِ رسولِ اللهِ ﷺ ، وليسَ لى إليْكَ ذَنْبٌ ؛ بل إنِّى لأعرِفُ مِنْ أمْرِى أنِّى لِلخليفة عَلَى ما يكونُ الرَّجُلُ المطيعُ .

فقال له يعقوبُ :

ـــ لا واللهِ يا أخِى ، لَنْ أقْتُلَكَ ، وَلَنْ ألقَى اللهَ بدمِك أبداً .

ثم انصرفَ إلى داخلِ بيتِه ؛ وأحضَرَ بعضَ المالِ ، وقالَ له :

ـــ خذْ هذا المالَ ؛ لتَستعينَ به على قضاءِ حوائجكَ ، واهْرُبِ الآنَ مِنْ عندِى ، وانْجُ بنفسِك .

وخرجَ العَلوِىُّ مستخفيًا مِنْ عندِ يعقوبَ ، بعدَ أنْ شكَره وودَّعه .

وكانتِ الجاريةُ قد سمِعتْ ما دارَ بينَهُما مِن حديثٍ ، فأرسلتْ فى الحالِ إلى الخليفة بكلِّ ما سمِعتْ .

فهاجَ الخليفة وغضِبَ ، وملأَ شوارعَ بغدادَ بالشُّرطةِ ؛

فقبضُوا على العلَوىِّ قبلَ أنْ يبرَحَ المدينة . فلما أَتَوْا بهِ إلى الخليفةِ ؛ أمرَ بحبْسِه فى غُرْفةٍ قريبةٍ من مجلِسه ، ثم بعثَ فاستَدْعَى وزيره يعقوبَ ، فلمَّا حضَر ؛ نظَر إليْه نظْرةً تَنْطِقُ بالغَضبِ ، وقالَ له :

— يا يعقوبُ ؛ ماذَا فعلتَ بالعلوىِّ الذى سلّمتُه إليكَ ؟

فأجابَه فى اضطرابٍ :

— لقد أراحَ اللهُ مِنْه أميرَ المؤمنين .

فسألَه الخليفةُ :

— أقَتَلْتَه ؟

فقالَ :

— نعمْ ، ووارَيْتُ جُثَّتَه بالتُّرابِ .

فقالَ له الخليفةُ :

— أتُقْسِمُ باللهِ ؟

فأقْسمَ يعقوبُ باللهِ ؛ فقالَ له الخليفةُ :

— ضَعْ يَدكَ عَلَى رأسِى واحلِفْ بها .

فوضعَ الوزيرُ يدَه عَلَى رأسِه ، وحلفَ بها أنَّه قتلَ العلَوىَّ .

عندَ ذلكَ قالَ المَهْدِىُّ لبعضِ خَدمِه :

— أحضِرْ إلَى مجلِسى الرَّجلَ الذِى فى هذه الغُرْفةِ .

فأحضَرَهُ الخادمُ ، فلما رآهُ يعقوبُ كادَ أن يُصْعَقَ ، وانحبسَ الكلامُ فى جَوْفِه ، واصفَرَّ وجهُه .

ونظرَ إليهِ المَهدىُّ ، وقالَ له :

— لقد حلَّ لِى دمُكَ .

ثمَّ التفتَ إلى خدَمِه ، وقالَ لهم :

— احمِلوه إلى السِّجنِ الذى تحتَ الأرضِ ، وألْقوه فيه

فأخذَه الخدمُ ، وذهبُوا به إليْه ، وربَطوه بحَبْلٍ ، وألْقَوْا بِهِ فى حُفرةٍ عميقةٍ مُظلمةٍ .

* * *

مكثَ يعقوبُ فى هذا السجنِ مدةً طويلةً ، لا يدرِى كَمْ كانتْ ؛ حتَّى نحلَ جسمُه ، وكفَّ بصرُه .

ومرَّتِ الأيامُ بطيئةً كريهةً عليْه ، وطالَ مرورُها . وذاتَ يومٍ ذهبَ الخدمُ إلى السِّجنِ ، ومعهُمْ حبْلٌ طويلٌ ، فدَلَّوْه فيهِ ،

وقالوا ليعقوبَ :

ـــ اصعَدْ فقدْ جاءكَ الْفرَجُ .

فدبَّتِ الحياةُ فى جسمِه النَّحيلِ لمَّا سَمِع هذه الكلِمةَ ، وعاودَه الأَملُ بعدَ أَنْ كانَ قد يئِسَ من النَّجاةِ ، وقامَ فأمْسكَ بالحبلِ ، وتعلَّق به : فجذَبه الْخَدمُ ، حتَّى أخرَجُوه من الْحُفْرةِ ، فخرجَ إلى ظَهرِ الأَرضِ وقد طالَ شعْره ، وتدلَّى على قفاهُ ووجهِه ، وقدْ طالتْ أظافِرهُ ، وذهبَ بصرُه ، وترامَتِ الأوْساخُ على ثيابِه وجسدِه .

فذهبُوا بِه إلى الحمَّامِ ، وقَصُّوا شعرَه وأظافرَه . وأصلَحُوا مِنْ شأنِه ، وألبَسُوهُ ثياباً جديدةً . ثمَّ قادُوه إلى مجلسِ الخليفةِ ، وقالوا له :

ـــ سَلِّم على أَميرِ المؤمنين .

فقال :

ـــ السَّلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنين .

فسألَه أحدُ الحاضِرين :

ـــ على أيِّ أمراءِ المؤمنين سلَّمتَ ؟

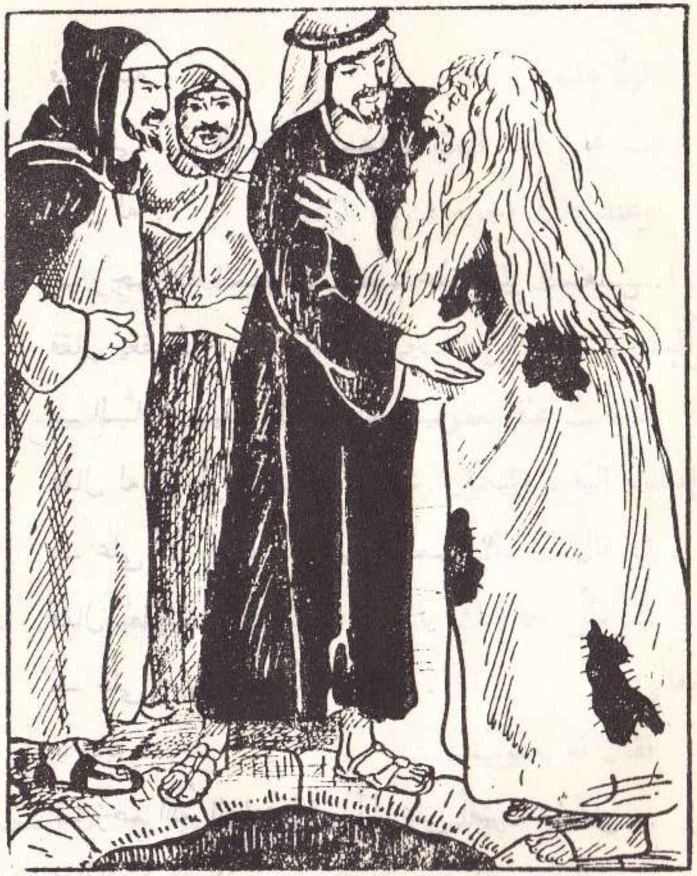

خرج يعقوب من البئر وقد طال شعره ، وتدلى على قفاه ووجهه ، وذهب بصره ، وتراكمت الأوساخ على ثيابه وجسده .

فردَّ عليه :

— على أميرِ المؤمنين المهْدِىِّ .

فقال له :

— رحِمَ اللهُ المهدِىَّ ! سلِّمْ على أميرِ المؤمنين .

فقال يعقوبُ :

— السَّلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنين .

فقال له الرجلُ :

— على أىِّ أمراء المؤمنين سلَّمتَ ؟

فقال يعقوبُ :

— على أميرِ المؤمنين الهادِى .

فأجابه :

— رحم اللهُ الهادِى ! سلِّمْ على أميرِ المؤمنين .

فقال يعقوبُ :

— السلامُ عليكَ يا أميرَ المؤمنين .

فقال الرجلُ :

— على مَنْ سلَّمتَ ؟

فرَدَّ عليْه :

— على أميرِ المؤمنين هارونِ الرَّشيدِ .

وعند ذلكَ أجابَه هارونُ الرَّشيدُ :

— وعليكَ السلامُ يا يعقوبُ ، ورحمةُ اللهِ وبركاتُه . لقدْ آلمنَا ما نالَكَ مِنَ السَّجنِ والتَّعذيب .

فدمَعتْ عيْنَا يعقوبَ ، وترحَّمَ عَلَى المهدىِّ ، وصفَح عن إساءَتِه إليْه ، وشكرَ الرَّشيدَ ، ودعَا له .

ثمَّ قال الرَّشيدُ :

— سَلْ حاجَتك يا يعقوبْ ، فإنَّها مقْضِيَّةٌ بإذنِ اللهِ تعالَى .

فقالَ له يعقوبُ :

— يا أميرَ المؤمنين ، لقد بلغْتُ مِنَ السِّنِّ حَدًّا لا أتمكَّنُ معه من الْمتْعَةِ واللَّذَّة . وكلُّ ما أريده أن أرْحلَ إلى مَكَّةَ ، وأعيشَ فى كنَفِ الكَعْبَةِ ، حتَّى يأتِينى الموتُ . فأْمُرْ لِى بما يُصْلِحُنى وجزاكَ اللهُ عنِّى خيرا .

ثم سأَل يعقوبُ عن جماعةٍ من إخْوانِه ، فأخْبِر بموْتِهم ،

فَتَرَحَّم عليْهم .

وأَمَرَ له الرَّشيدُ بما يَحتاجُ إليه منَ المالِ ، ثم ودَّعه أحسنَ وَداعٍ ، فذهبَ يعقوبُ إلى منزلِه ، واستعَدَّ للرحيلِ إلى مكةَ . وما هِيَ إلَّا أيامٌ حتَّى كانَ بجوارِ البيتِ الحرامِ ، يعبد الله حتَّى وافاهُ الأجَلُ .

قصص عربية

(١) أيام النعمان
(٢) الملك المخدوع
(٣) فارس الشهباء
(٤) جابر العثرات
(٥) الملك الهارب
(٦) الاعتراف بالجميل
(٧) بين المأمون وعمه
(٨) من نوادر الطفيليين
(٩) عروة وعفراء
(١٠) حيلة بارعة
(١١) قاتل الأسد
(١٢) عند ملك الصين
(١٣) زعيم الصعاليك
(١٤) جزاء الاحسان
(١٥) حلة النعمان
(١٦) قاضى الكوفة
(١٧) فتح بيت المقدس

دار مصر للطباعة
الثمن ٢٥٠ مليما